القبة .. استراحة للسلاطين وقصوراً للملوك

تماماً كما فعل محمد على باشا لتعمير المنطقة بين القاهرة وشبرا ، أنشأ قصر شبرا ليبنى الناس بيوتهم فيما بين العاصمة وضاحيتها شبرا . . كذلك فعل الخديو إسماعيل عندما أنشأ قصراً فى منطقة القبة . وإذا كان الخديو إسماعيل قد أنشأ قصر عابدين لينقل إليه مقر الحكم ، فإنه أنشأ قصر القبة ليصبح قصراً لإقامته هو وأسرته . . فما حكاية القبة التى اختارها إسماعيل موقعاً لبناء قصره الفخم هذا فيها . . وكيف تطورت؟!

فى عام ٨٨٢ هـ أنشأ الأمير يشبك الدوادار بقطعةأرض ناحية المطرية قبة فخمة عالية ، لينزل فيها عندما يخرج للنزهة خارج القاهرة ؛ لطيب هوائها وتوسطها بين الأراضى الزراعية والأراضى الصحراوية الجافة . . وبعيداً عن ضوضاء العاصمة . . وعندما تولى حكم مصر السلطان الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى عام ٩٠٦هـ ، استمر فى سياسة الأمير يشبك نفسها ، فاتخذ هذه القبة « مقعداً » ينزل فيه كلما أراد التنزه والرياضة ، وكان يبيت فيها من وقت إلى آخر طوال مدة حكمه ، بل إنه أنشأ بجوارها عدداً من « الفساقى » يجرى فيها الماء ، وحفر بئراً ليشرب منها المسافرون ، الذين يمرون من هناك . وهكذا عرفت المنطقة باسم قبة الغورى ، بعد أن أصبحت من أملاكه . ولا تزال هذه القبة موجودة . وظلت مستعملة مسجداً للصلاة بها ، وبها محراب أنشىء من يوم بنائها ، كما هى العاده فى بناء القباب ـ كما يقول محمد بك رمزى

فى مؤلفه الكبير القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، الذى انتهى من إعداده عام ١٩٤٥م.

وفى أوائل القرن الحادى عشر الهجرى ، بدأ الناس يبنون دورهم وبيوتهم بجوار هذه القبة . وتكونت قرية جديدة عرفت باسم « القبة » نسبة إلى هذه القبة . ومن هنا جاء اسمها ، وأصبحت من ضمن البلاد التابعة لناحية المطرية . وظل بعض العامة يقولون قبة الغورى ، أو قبة العزب . لأنه كان يسكنها بعض عساكر طائفة « عزبان » الذين كانوا يحرسون القلاع ، فعرفت باسم «قبة العزب» ، وعلينا أن نربط بين قبة العزب هذه و«باب العزب » فى الجهة الغربية من قلعة صلاح الدين ناحية ميدان القلعة أو ميدان الرميلة الذى كان يطلق عليه يوماً ما قره ميدان !!

وفى سهل القبة دفع كليبر بقواته ليقاتل الجيش العثمانى فى معركة عين شمس ، وفى السهل نفسه نظم عرضاً عسكرياً بعد إخماده لثورة القاهرة الثانية .

ولكن فى عام ١٢٢٨ هـ أى فى عصر محمد على باشا ، تم فصل قرية القبة هذه من كونها من توابع ناحية المطرية لتصبح قائمة بذاتها .

إلى أن جاء حفيده إسماعيل باشا وتولى حكم مصر عام ١٨٦٣م ليبنى قصره هذا فى منطقة القبة ، ويحيطه بحدائق واسعة هى مضرب الأمثال ، ولا يدانيها إلا حدائق قصر المنتزه فى الإسكندرية . .

والغريب أن إسماعيل باشا عرض هذا القصر يومًا للبيع . هل تعلمون كم طلب ثمناً لهذا القصر وحدائقه وأثاثاته ؟!

●● لقد عرض الخديو إسماعيل بيع قصر القبة مع ٦١٨٩٣ فداناً ، بكل ما عليها من مبان وآلات وفابريكات على أساس ٢٠ جنيهاً للفدان ، وبذلك يصبح ثمن الكل مليوناً و٢٣٧ ألفا و٦٠ جنيهاً . أما ثمن القصر وحده ، فقد طلب إسماعيل ثمناً له ٥٠ ألف جنيه . ويقول إعلان الرغبة فى البيع « وإذا قدر لكم أن الثمن المقدر لقصر القبة زهيد . . وأرادوا الرجوع لأهل الخبرة وتثمينه بواسطتهم ، أو أظهروا رغبة فى صرف النظر

عن بيعه بتاتاً فلا بأس . . وإذا تعذر البيع بهذه الأسعار ، يجب أن يرجعوا إلى صاحب السعادة نوبار باشا بخصوص إتمامها ، حيث إن إمضاء الشروط مفوض إليه . . . !!!»
والحمد لله أن عملية البيع لم تتم ليستمر قصر القبة قيمة تاريخية ومعمارية وزراعية نادرة؛ إذ اهتم به ابنه الملك أحمد فؤاد الأول ، الذى حكم مصر بين عامى ١٩١٧ و١٩٣٦م . كما اهتم به وحافظ عليه وزاده بهاء ، ورممه بعد ذلك حفيده الملك فاروق الأول الذى حكم مصر بعد والده فؤاد عام ١٩٣٦م إلى أن تنازل عن العرش يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢م . ولم يقدر لآخر ملوك مصر ، الملك أحمد فؤاد الثانى أن يقيم فيه لأنه سرعان ماتم إلغاء الملكية فى مصر ، وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيه ١٩٥٤ ، وإن كان قد عاش فيه طفلاً رضيعاً لأنه ولد فى يناير ١٩٥٢م .

●● ورغم أن حكام مصر الجمهورية لم يقيموا فى القصور الملكية عابدين أو المنتزه أو قصر القبة أو رأس التين ، حتى لا يتهمهم الشعب بأنهم طردوا الملك منها ليقيموا فيها بدلاً منه . . إلا أن الرئيس السابق جمال عبد الناصر كان يستخدمه قصراً للضيافة ينزل فيه ضيوف مصر ، من الملوك والرؤساء الأجانب . واستمر قصر القبة قصراً لإقامة كبار ضيوف مصر ، إلى أن زاد اهتمام الرئيس السابق أنور السادات به كجزء من سياسته لحماية هذه المنشآت العظيمة فعنى به ورممه وجدده . . وزاد هذا الاهتمام فى عصر الرئيس حسنى مبارك ، واعتبر فى عصره مقراً للضيافة . . ويلتقى فيه رئيس الجمهورية بكبار ضيوفه من الملوك والرؤساء ، ربما ليروا كيف كانت مصر عظيمة ، وحجم وعمق ما تملكه مصرمن تاريخ عظيم .

وتعتبر حدائق قصر القبة من أجمل حدائق العالم ، وتكوّن مع القصر وحدة عالمية تجمع بين جمال البناء للقصر ، وجمال تنسيق الحدائق المزهرة المثمرة . . وإذا كان الخديو إسماعيل قد عرض بيع هذا القصر وحدائقه بهذا المبلغ الزهيد «٥٠ ألف جنيه » فكم ثمنه الآن لو عرضته رئاسة الجمهورية للبيع . وبكم يباع المتر الواحد ليتحول إلى قوالب من الطوب والأسمنت يطلقون عليها الآن اسم « المساكن » ؟!

●● المهم أننا شهدنا ـ فى العالم تعبير المدينة الجامعة ، مثل مدينة أوكسفورد ومدينة كيمبردج بحكم نشوء الجامعة أولاً ثم تحيط بها مدينة فى إنجلترا . وأيضاً جامعة كولورادو فى مدينة بولدر الأمريكية . وشهدنا المدينة المصنع ؛ أى كانت البداية إنشاء صناعة كبيرة ثم نشأت حولها تجمعات سكنية ، سرعان ما تحولت إلى مدينة كما وجدنا فى شيفيلد الإنجليزية . وعندنا فى مصر نجد المحلة الكبرى ، وكفر الدوار ، والتبين . . وجدنا ذلك كله فى المدينة القصر ، أو الحى القصر . .

●● إذ حول قصر رأس التين فى الإسكندرية نشأ حى رأس التين غربى مدينة الإسكندرية . وحول قصر المنتزه نشأ حى المنتزه فى شرق الإسكندرية ، والوضع نفسه فى القاهرة ؛ إذ نشأ حول مقر الحكم فى قصر عابدين حى عابدين فى وسط القاهرة ، ونشأ حول قصر الإقامة فى القبة حى القبة فى شمال المدينة . .

ولم تقف أعمال تعمير المنطقه عند إقامة قصر القبة ؛ إذ تألفت شركة حدائق القبة فى عام ١٩٠٨م لتعمير منطقة مساحتها ١١٠ أفدنة وتتولى تقسيمها ، وأنشأت تلك الشركة شارعًا يخترق أراضيها عرضه ٦٦ قدمًا كما أنشأت عدداً من الشوارع ، تتفرع منه يتراوح عرضها بين ٤٠ و٣٣ و٢٦ قدماً . وانتعشت بسرعة أعمال البناء التى قامت بها الشركة أو الأفراد حتى اتصلت القبة بقلب القاهرة ، وأصبحت تنافس المعادى فى هدوئها .

ولأن الناس على دين ملوكهم ، وأنهم يعشقون الإقامة حول قصور الحكام ، فإن سراة القوم والأغنياء من الأمراء والباشاوات وكبار التجار أخذوا يبنون قصورهم وبيوتهم بالقرب من قصر القبة . وامتازت هذه القصور والفيلات بأنها محاطة بالحدائق الغناء . وهكذا نشأ حى «حدائق القبة » ووجدنا منطقة حمامات القبة . . وعندما تم شق شارع ملك مصر والسودان ، أسرع الأغنياء فى بناء قصورهم على طوله من بدايته عند منطقة غمرة متفرعا من شارع الملكة نازلى ـ رمسيس حالياً ـ ومازالت معظم هذه القصور والفيلات صامدة تقاوم عوامل الزمن ، وتقول هنا يقوم حى له تاريخ . ويستمر

العمران بالقصور والفيلات حول هذا الشارع «ملك مصر والسودان » إلى أن يصل إلى شارع ولى العهد ، ثم إلى المدخل الرئيسى لقصر القبة .

ومع التزايد العمرانى ، اتصلت أحياء وضواحى منشية الصدر وحمامات القبة والزيتون والمطرية والحلمية وعين شمس ، بعد إقامة عديد من المبانى الحكومية والمصانع . ثم دخلت وزارة الأوقاف وهيئة الأوقاف المصرية الميدان فقسمت مساحات كبيرة من أراضيها الموقوفة غرب قصر القبة لتتحول إلى غابة كثيفة من المبانى الخرسانية ، بعد أن كانت مناطق زراعية تساهم فى توفير الغذاء لسكان العاصمة . وأصبح من الصعب الفصل بين هذه الأحياء ، بعد أن تداخلت المبانى وامتدت الشوارع . .

ولكن مازالت مظاهر الترف تحيط بالمنطقة وبالحى الذى بدأ بمجرد قبة صغيرة ، وأصبح منطقة يتسابق الأغنياء للإقامة فيها . ولم تكن مبانيها تزيد على طابقين معظمها قصور وفيلات تحيط بها الحدائق الكبيرة والصغيرة ، كل حسب إمكانياته .

وامتد العمران إلى المنطقة الشمالية من قصر القبة ليصل إلى منطقة السواح . . ومنطقة الأميرية ، وإلى غير بعيد عن مجرى ترعة الإسماعيلية الحلوة ، التى تنقل مياه النيل إلى منطقة قناة السويس ، وكأن الترعة والقصر يتعانقان ولو على البعد ليذكرا الناس بمن أنشأ الاثنين : الترعة . . والقصر ، وكان اسمه : الخديو إسماعيل .

●● وإذا أردنا استعراض عناصر التخطيط وأهم شوارع حى القبة ، نجد أن هذا الحى يبدأ من شمال حى منشية الصدر ؛ حيث تقع فى القرب منطقة حدائق القبة . وأهم شوارعها شارع ولى العهد ، الذى هو امتداد تقريبى لشارع مصر والسودان ، ويتقاطع معه شارع حدائق القبة ثم شارع على باشا شعراوى « والد رائدة الحركة النسائية » هدى شعراوى ، وكان أحد الثلاثة الذين قابلوا المعتمد البريطانى السير ريجنالد وينجت ؛ ليطالبوه باستقلال مصر ، أما الاثنان الآخران فهما الزعيم سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى باشا ، وذلك يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨م . ثم شارع قاسم بك أمين « رائد حركة تحرير المرأة » وشارع الدوادار الذى يبدأ من شارع ترعة الجبل .

وإذا كانت القبة هى قلب الحى الجنوبى وحدائق القبة على يسارها . . فإن كوبرى القبة على اليمين من هذا القلب حيث شارع كوبرى القبة وشارع الفريق محمود شكرى باشا وشارع والى وشارع المطرية ، ويتوسط كل هذه الشوارع . . محطة كوبرى القبة .

ثم نتجه شمالاً إلى حى القبة الشمالى (شمال كوبرى القبة) ، فنجد على اليسار أرضاً كانت مزارع يانعة يتوسطها مقام سيدى الطبرى بين سكة حديد كوبرى الليمون على اليمين وشارع المطرية على اليسار ، وجنوب المقام تقع حديقة القبة . أما على اليمين حيث شارع الفريق محمود شكرى باشا ، فنجد شارع علان وشارع التبر ، ثم ميدان ابن سندر وشارع الشيخ محمد بخيت وشارع ابن مروان ، ثم محطة حمامات القبة حيث شارع القبة على خط السكة الحديد ، ثم شمالاً شارع بنى طى وشارع بنى عقيل ، بينما شارع طومان باى على اليمين . وعلى يمين هذا الشارع ، نجد شارع سكة حديد السويس القديمة « شارع جسر السويس الآن » ثم شارع المقريزى على يمينه إلى أن نصل إلى سراى القبة على يسار خط السكة الحديد القادم من كوبرى الليمون ، ونصل إلى شارع عبدالقادر الجيلانى حيث نهاية حى القبة الشمالى عند مسجد سيدى محمد السواح ؛ حيث على اليمين ميدان القبة . . ويمتد خط السكة الحديد إلى المطرية شمالاً بشرق .

وعلى يمين ميدان القبة بعد أن نعبر شارع الفريق محمود شكرى باشا ، نجد سراى الطاهرة وشماله شارع قصر الطاهرة وشرقه شارع البوصيرى إلى أن نصل إلى شارع القبة ، الذى يعتبر هنا امتداداً لشارع إبراهيم اللقانى فى ضاحية مصر الجديدة شرقا .

ويعتبر شارع سكة حديد السويس القديمة هو الحد الشرقى الفاصل بين حى القبة وضاحية مصر الجديده شرقاً ، بينما يفصل شارع المقريزى بين حى القبة وحى منشية البكرى .

وعندما ينتهى شارع قصر الطاهرة شرقاً وشارع عبد القادر الجيلانى ، ينتهى حى القبة ليبدأ حى الزيتون . .

وكما هى العادة الملكية كان الحرص على توصيل خدمات شبكة السكك الحديدية إلى معظم القصور الملكية . لهذا نجد محطة خاصة للسكك الحديدية فى الجهة الشرقية من قصر القبة ، تماماً كما هى موجودة أيضاً فى الجهة الشرقية من قصر المنتزه . مبنى فخم يتناسق ويتكامل مع طبيعة مبانى القصر نفسه ، والمحطة تستوعب بالكامل عربات القطار الملكى لكى يسهل للملك والحاكم من بعده ركوب هذا القطار الملكى إلى حيث يشاء . . وهذا القطار الملكى استخدمه رؤساء مصر بعد سقوط العصر الملكى . . من جمال عبد الناصر إلى أنور السادات إلى حسنى مبارك .

أى إن القبة كحى كبير فيه مناطق : حدائق القبة . . كوبرى القبة . . حمامات القبة . . سراى القبة . . محطة القبة ، فضلاً عن القبة . وكلها بدأت وتنتسب إلى القبة التى أنشأها الأمير يشبك الدوادار الذى مازال ذكره حاضرًا عند العامة والخاصة ، وذلك على ناصية الشارع الذى يحمل اسم : شارع الدوادار الذى يبدأ من شارع ترعة الجبل، ويجاور شارع قاسم بك أمين . وكل هذا بسبب تلك القبة الصغيرة التى أقامها الأمير يشبك ؛ ليستريح فيها عند خروجه للنزهة ، وورثها عنه السلطان قانصوه الغورى !!

مدخل قصر القبة الذى أنشأه إبراهيم باشا . . وأعاد الخديو إسماعيل أقامته وتزوج فيه توفيق . .
وأصبح مقراً لإقامة ملوك مصر .

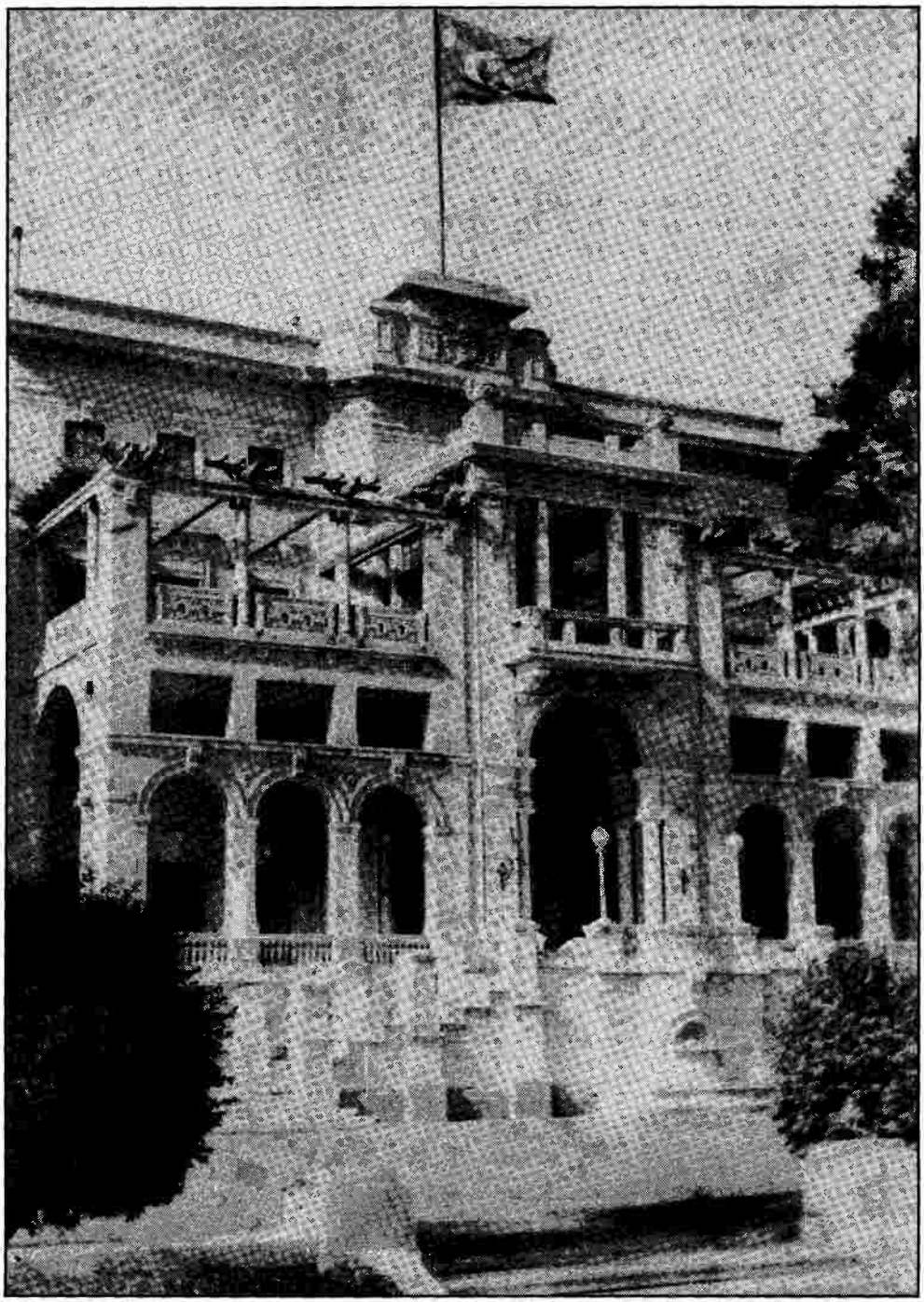

واجهة قصر القبة الذى بناه إسماعيل باشا ليقيم فيه ـ بعد أن تزوج ـ أبنة محمد توفيق باشا .

إبراهيم باشا الفاتح العظيم أول من فكر فى بناء قصر فى منطقة القبة .